القصص

من غير عنوان

للقصصى الروسى تشيكوف

كانت الشمس فى القرن الخامس عشر تشرق كل صباح وتغرب كل مساء كما هى اليوم . وحينما تقبل أشعتها الاولى تندى الارض تنفض هذه عنها غبار الكرى ، وتشيع فى الدنيا البهجة وتملؤ الاماني ! وتعود الارض فى المساء الى سكونها ثم تغوص فى غياهب الليل . وقد ترى احيانا سحابة راعدة تلوح ؛ ويقصف الرعد وهو يزمجر ، أو تهوى نجمة من شاهق وهى وسنانة ، أو يقبل راهب حثيث الخطى شاحب اللون ليخبر رفاقه بانه رأى نمرا قريبا من الدير . كان هذا كل شيء ، ثم تعود ثانية الايام تشابه الايام ، والليالى تحاكى الليالى .

كان الرهبان يصلون ويعملون : أما رئيس الدير فيعزف على الأرغن ، ويقرض الشعر اللاتينى ، ويؤلف النغم الموسيقى . وكان للكهل الحلو الوديع ذكاء نادر وسجايا حميدة . فهو يعزف على الأرغن ببراعة ، حتى أن معظم الرهبان القدماء الذين يضعف سمعهم كلما قربت نهاية حياتهم ما كانوا يستطيعون أن يحبسوا دموعهم كلما هف صوت ارغنه من صومعته . وعند ما يتكلم ولو عن الشئون العامة كالشجر والوحوش الضارية والبحر الخضم ، لا يسمعه انسان دون ان ترى دمعة تترقرق فى عينيه ، أو بسمة ترتسم على شفتيه . فيخيل اليك ان الانغام التى تتجاوب فى الأرغن هى بعينها التى تعتلج فى نفسه . وحينما يهيجه غيظ متمكن ، او يأسره فرح شديد ، او يتحدث عن اشياء مروعة تأخذه نشوة قوية ؛ ويتساقط الدمع من عينه اللامعة ، وتضرج وجهه الحمرة ، ويدوى صوته كالرعد . هنا يحس الرهبان المستمعون ان ارواحهم تذيبها عظمته وانها تفنى فيه . لقد كانت قوته فى هذه الدقائق العظيمة العجيبة لا تحد ، فلو امر شيوخ الدير ان يقذفوا بانفسهم فى البحر لاستبقوا اليه مسرعين .

كان موسيقاه وصوته وشعره الذى يمدح به الله منبعاً لسرور الرهبان لا ينضب . ففى مدة حياتهم الرتيبة تتقلب الاشجار والازهار والربيع والخريف الى اشياء جلة ، ثم يقلقهم هدير اليم الزاخر ، ويصيح شدو الطير بملول النغم مرذول الجرس . ولكن سجايا رئيسهم كانت لهم بمثابة القوت المحيي والقوة المجددة .

كرت السنون وما زالت الايام تشابه الايام ، والليالى تحاكى الليالى وما دنا من الدير أحد اللهم الا ضوارى الوحش وجوارح الطير . وكانت أقرب المساكن الانسانية بعيدة جداً . ولا تصل اليها من الدير أو تصل الى الدير منها حتى تعبر صحراء ذرعها مائة ميل .

والذين يجرأون على القيام بهذا هم أولئك الذين لا يجعلون للحياة قيمة ولا يقيمون لها وزنا ، والذين نبذوها وراءهم ظهريا ونفضوا أيديهم منها جلة . يولون وجوههم شطر الدير وكأنهم يسيرون الى القبر .

ولشد ما كانت دهشة الرهبان عند ما قرع بابهم فى ليلة من الليالى رجل برهن لهم على أنه من سكان المدينة : وكان هذا الرجل أكثر الناس ارتكابا للاثم وحبا للحياة . وقبل ان يصلى او يرجو رئيس الدير ان يباركه طلب طعاما ونبيذا .

فلما سألوه عن سبب قدومه من المدينة الى الصحراء قص عليهم قصة صيد طويلة : خرج يطلب الصيد ومعه شراب كثير فضل الطريق ، وعند ما اشاروا اليه أن من الواجب عليه ان يمسى راهبا اجابهم فى ابتسام :

« لست لكم بصاحب ! »

شرب واكل ملء بطنه ، ثم رفع بصره الى الرهبان الذين يقومون بخدمته وهز رأسه لائما وقال :

« انكم معشر الرهبان لا تعملون شيئا ، كل ما تعنون به هو طعامكم وشرابكم ، هل هذه هى الطريقة لخلاص أرواحكم ؟ فكروا الآن ! بينما أنتم تعيشون فى هدوء هنا ، تأكلون وتشربون وتحلمون

بالخيرات والبركات اذا باخوانكم هناك قد كتب عليهم عذاب الجحيم ، انظروا ما الذى يحدث فى المدينة ابينما بعض الناس يموتون جوعا ،اذا بالآخرين لا يعرفون أين يبذرون الذهب ، ينغمسون فى الدعارة ويهلكون فيها كما يهلك الذباب فى العسل ، ثم لاصدق ولا اخلاص بين الناس . من الذى يجب عليه انتشالهم مما هم فيه ؟ أأنا الذى أروح صريع الكأس من الصباح الى المساء ؟ هل أنعم الله عليكم بالاخلاص ، ومن عليكم با لحب ، وحاكم بالقلوب الرحيمة ، لتجلسوا هنا بين هذا الجدران الاربعة ولا تعملون شيئا؟!،

ومع أن كلام الرجل الكبير كان ينطوى على الجرأة والقحة فقد أثر تأثيراً غريبا فى رئيس الدير فنظر هو والرهبان بعضهم الى بعض ثم قال رئيسهم بوجه شاحب ، اخوانى انه محق . فصحيح ان الحماقة والضعف البشرى جرفا الانسانية التعيسة فى تيار الجحود والاثم فاهلكاها وقضيا عليها . وها نحن اولا . لانريم من هذا المكان كأن لا عمل لنا ولا واجب علينا . لماذا لا أذهب اليهم فاذكرهم بالمسيح الذى نسوه ؟ » .

نالت كلمات رجل المدينة من نفس رئيس الدير ، فى اليوم التالى أمسك بعكازه وودع اخوانه ، وركب الطريق الى المدينة ، فامسى الرهبان لاينعمون بموسيقاه ولايحلو حديثه ولا برائع قريضه .

ترقبوه شهرا ثم شهرين فما عاد ، وأخيرا فى نهاية الشهر الثالث سمعوا نقر عصاه المألوف فخف الرهبان لملاقاته وأمطروه بالاسئلة ، ولكنه بدلا من مشاركتهم فى حبورهم بكى بكاء مرا وما نبس ببنت شفة . رأى الرهبان انه اصبح نحيلا وان اعراض الكبر قد بدت على ملامح وجهه

فما تمالك الرهبان وقد رأوا منه ذلك ان اجهشوا بالبكاء وسألوه عما يبكيه ، فما اجابهم بكلمة وغادرهم موصدا عليه بابه ومكث فى صومعته . لبث فيها خمسة ايام ماشرب فيها شرابا ولا طعم طعاما ولاعزف على الآوغن . ولما طرق الرهبان عليه بابه والحوا عليه فى الخروج ليشاركوه فى اساه كان جوابه الصمت العميق .

خرج من معتكفه أخيرا وجمع حوله الرهبان وأخذ يقص عليهم ماحدث له خلال الشهور الثلاثة التى خلت ، والدمع ينضح وجهه والالم يأكل قلبه ، ثم هدأت نفسه وتهللت أساريره حينما أخذ يصف لهم رحلته من الدير الى المدينة . غنى الطير وخر الجدول على جوانب الطريق ، وجاش صدره بالأمانى الحلوة والآمال . المعسولة . شعر بانه جندى يتهيأ لاقتحام الموقعة والوصول الى النصر المحقق . سار حالما يقرض القصيد ويصوغ النشيد ، وسرعان ما وجد نفسه فى نهاية الرحلة . على ان عيونه أومضت باللهب ، ونفسه جاشت بالغضب وصوته ارتعش عندما بدأ يحدثهم عن المدينة والانسانية . ماكان رأى ولاتخيل قبل اليوم كل الذى رآه وأحصاه وهو فى قلب المدينة . رأى وفهم لاول مرة فى حياته سلطان ابليس وسيادة الجور وضعف القلب الانسانى الخاوى . هنا خمسون أوستون رجلا جيوبهم مترعة بالمال يقصفون ويشربون النبيذ دون حد . أخذوا وقد تملكتهم نشوة الراح يرفعون عقائرهم بالغناء الساقط ، وينوهون فى شجاعة باشياء جارحة لايجرؤ انسان يخاف الله جل سلطانه ان يشير اليها . فهم احرار سعداء شجعان لايخافون الله ولايخشون الجحيم ولايهابون الموت . يقولون ويفعلون مايشاءون ،ويذهبون الى حيث تسوقهم رغباتهم الجامحة .

اما النبيذ فصاف صفاء الكهرمان ! وهو ايضا ذكى الرائحة لذيذ الطعم ،لأن كل من يعب منه يطفح وجهه بالبشر ويرغب فى الشراب ثانية . وهو يجزى على ابتسام بابتسام ، و يتهلل غبطة كانه يعرف أى ضلال جهنمى يختبىء تحت حلاوته .

على مرجل غضبه وبكى . أحر البكاء واشجاه . ثم استطرد يقص عليهم مارأى : « وقفت أمرأة نصف عارية على منضدة وسط القاصفين ، ويصعب عليكم ان تتصوروا شيئا اكثر فتنة وسحرا منها ، صبى ناهر زاهر ، وشعر طويل جثل ، وعيون سوداء لامعة ، وشفاه مكتنزة محمرة ، ثم سفاهة وجرأة وقحة . هذه البهيمة تبتسم فتفترعن اسنان بيضاء كالبرد كأنها تقول : «انظروا انى جميلة ! ومستهترة .....» وتتدلى من عاتقها الملابس الحريرية البديعة المشجرة . على ان جمالها لاتحتاج ملابس ، لأنه بشره يفسح لنفسه الطريق بين طيات ثوبها ..... كانه الأعشاب الصغيرة وهى تشق لنفسها الطريق فى الارض زمن الربيع . وتشرب المرأة التى لاتستحى النبيذ ،وتغنى الأغانى ، ثم تستسلم بعد ذلك للمعربدين .....» لوح الرجل الكهل بذراعيه حانقاً ثم استمر يصف لهم سباق الخيل ، وصراع الثيران ،والملاعب ،وحوانيت الفنانين حيث يعرض هيكل المرأة العارية مرسوما بالزيت أو منحوتا من الصلصال

* * *

كان الرجل فى حديثه لسنا ملهما جهورى الصوت حلو الجرس كأنه يعزف على آلة موسيقية لاتقع عليها العين . والرهبان